تدريس العلوم الرياضية والطبيعيّة بالزيتونة والخلدونيّة

الأستاذ الدكتور محمّد السويسي

كان لتونس والمغرب الإسلاميين تقاليد عريقة في ميدان العلم والتربية والتعليم، فمنذ سنة (51 هـ / 671م) كان جامع عقبة بالقيروان كعبة العلم ومحطّ رحال طلبة المغرب. واستمرّ هذا المعهد في عمله التّثقيفي حتّى سنة (555 هـ/ 1160 م) حيث انتقل مركز التّعليم الرّسمي إلى جامع الزيتونة بعاصمة تونس .

وأمّا المغرب فكان في نهاية القرن الأوّل للهجرة متأثّراً إلى أبعد حدّ بالثقافة الأندلسيّة لقرب الشقّة منها؛ على أنّ فريضة الحجّ كانت تدعو المغاربة إلى زيارة البقاع المقدّسة مروراً بعواصم العلم بالمغرب والمشرق... فرحلوا إلى القيروان رحلة علميّة، وكرعوا من حياض العلم بها قبل العودة إلى أوطانهم.

وفي سنة (255 هـ/ 868 م) أسّست فاطمة أمّ البنين القيروانية جامع القرويين بفاس، فبلغ أوج رقيّه العلمي على عهد المرينيين (614– 876هـ /1217– 1471م).

وإذا نظرنا إلى ميدان التأليف فقد ألّف سحنون «مدوّنته» الفقهيّة،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وألّف محمد بن سحنون، وأبو الحسن علي بن خلف القابسي، كتابي «آداب المعلّمين»(1)، و «الرّسالة المفصّلة لأحوال المعلمين وأحكام التعليم»(2). وألّف أحمد بن الجزّار «زاد المسافر»(3)، وسائر تصانيفه الطبية، ومنها «سياسة الصبيان وتدبيرهم». وجمع عبد الله بن أبي زيد القيرواني مذهب مالك، وشرح أقواله، فصنّف كتابه «الرسالة» الذي صار مرجع طلبة المغرب في الفقه، وكان المساعد الأقوى على إرساء المالكية بالمغرب والأندلس.

ثمّ استقلّ الزّيريون بتونس (361 – 555هـ/ 971– 1160م) والمرابطون بالمغرب الأقصى (ق 4 هـ).

وانفردت فاس بعلومها الدّينيّة عن القيروان وقرطبة. وتخصّصت مرّاكش بعلومها الطبيّة والرّياضيّة والطبيعيّة والفلسفيّة. وأولى الأمراء رعايتهم للعلم وأهله، شأن مايشاهد بتونس في بلاط المعزّ الصنهاجي، وبمرّاكش في بلاط يوسف بن تاشفين وابنه عليّ، وعبد المؤمن بن علي، ثمّ يعقوب بن عبد الحقّ: «وقد كان لهم في الاهتمام بالعلم والجهاد، وتشييد المدارس واختطاط الزّوايا والرّبط..، ثمّ مخالطة أهل العلم، وترفيع مكانهم في مجالسهم، ومفاوضتهم في الاقتداء بالشريعة، ماشهدت لهم به آثار خلّفوها بعدهم ...»(4).

وفي القرن السّابع الهجري (سنة 621 هـ / 1224م) ينوّه عبد الواحد

---

(1) نشر. ح. ح. عبد الوهاب، تونس 1348 هـ.

(2) ط. القاهرة 1968 م.

(3) نشرت المقالات الثلاث الأولى بمناسبة ألفية ابن الجزّار، تونس ؛ والبقية بذمة بيت الحكمة بقرطاج .

(4) ابن خلدون: كتاب العبر، ج 6 ، ص 105.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المرّاكشي، صاحب كتاب: «المعجب في تلخيص أعمال المغرب» بما كان لمدينة فاس من شأن، فكانت في وقته «موضع العلم من المغرب، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة...» وهو مازال «يسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب...».

وفي هذا العصر بالذّات انطلقت المدرسة الرياضية المغاربية، وكان شيخ شيوخها أبو محمد عبد الله بن محمد بن حجّاج الأدريني، المعروف بابن الياسمين، المتوفى بمرّاكش سنة (601 هـ / 1204م)، وعنه أخذ أهل المغرب الحساب والجبر والمقابلة، وحذوا حذوه، فألّفوا من التآليف ماشابه تآليفه أو أوضحها وفسّرها، واستشهدوا بشواهده واعتمدوا عليها .

وإذا نحن ذكرنا ماكان من موقف الشرق حين وصله كتاب: «العقد الفريد» لابن عبد ربّه فصرّح مستكبراً: «بضاعتنا ردّت إلينا» فنحن نجده في الميدان العلمي لايتحرّج عن الأخذ عن علماء المغرب، خاصّة في الرياضيات، ولم يأنف من التتلمذ لهم ودرس مؤلفاتهم وشرحها ونشر أصولها وفروعها.

فمن أهمّ الشروح على الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة نجد:

- شرح شهاب الدين أحمد بن محمد بن الهائم (المتوفى سنة 815 هـ/ 1423م) بالقدس، وقد حرّر شرحه بمكة المكرّمة سنة (789 / 1396م).

- وشرح ولي الدين بن زين الدين العراقي (ت . 826/ 1423).

- وشرح بدر الدين محمد بن علي سبط المارديني (ت . 907 / 1501) وسمّي التعليق باسم «اللمعة المارديني في شرح الياسمينية» .

- وشرح مصطفى الحنفي الظافر بعنوان «الهبات السّنية على الأرجوزة الياسمينية».

ولكن ألمع شخصية علميّة في هذا العصر، من أحرز قصب السّبق في مضمار الرياضيات، معلّم الجيل بلا منازع، هو أبو العبّاس أحمد بن عثمان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأزدي المعروف بابن البنّاء المولود بمراكش سنة (654 هـ / 1256م) ، ولقد عاشرته مايربو عن ثلاثين سنة، فحققت كتابه «تلخيص أعمال الحساب»، وعلّقت عليه ونقلته إلى الفرنسية. كما أبرزت طرائف مكتشفاته في فنون الحساب التي احتوى عليها كتابه «رفع الحجاب عن وجوه أعمال الحساب»... وتتلمذ على ابن البنّاء أجلّ العلماء بالمغرب في القرن الثامن الهجري، وكان في المنزلة الأولى منهم أبو عبد الله الآبلي، شيخ المقّري، وابن خلدون، وابن عرفة في الرياضيات... كما تتلمذ عليه ابنا الإمام، وهما على ماذكره المقّري، أبو زيد عبد الرحمان، وأبو موسى عيسى، وقد تنقلا في شبابهما إلى تونس، وأخذا عن ابن جماعة وابن العطّار ...

واعتنى تلامذة ابن البنّاء بطريقة شيخهم، ونشروا تعاليمه، وازدهرت مدرسته، فأقبل العلماء طوال القرون المتوالية على شرح مؤلفاته، وتوضيح العديد من نظرياته. ومن هؤلاء الشرّاح :

– أبو الحسن علي بن عبد الله، ابن هيدور، وهو العالم بالفرائض والحساب، وله شرح على تلخيص ابن البناء وتعليقات على رفع الحجاب (توفي 816 هـ/ 1413م) .

– وأحمد بن رجب بن تنبغا المعروف بابن مجدي (ت 850 هـ/ 1446م)، ولنا منه شرح على التلخيص سمّاه حاوي اللّباب في الحساب.

– وشهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد... ابن الهائم الشافعي المصري (ولد بالقاهرة سنة 756هـ/ 1355م) ثمّ استقرّ ببيت المقدس، وكان عالما بالفرائض والحساب، وعُرف بالفرضي، ومن رسائله: الوسيلة في الحساب، والمعونة في حساب الهواء، وشرح على النزهة في الحساب بقلم الغبار، والمغني في الجبر والمقابلة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

- وأبو عبد الله محمد بن مرزوق، المعروف بالحفيد، من أسرة علم بتلمسان، وله أرجوزة على تلخيص ابن البنّاء (ت. 842هـ/ 1438م).

- وأبو الحسن علي بن محمد... القلصادي القرشي البسطي، وقد أخذ بتونس عن ابن عقاب، وحلولو، وأبي العبّاس القلشاني، ونزح إلى إفريقية حيث توفي بباجة سنة (891هـ/ 1486م)، «وهو آخر العلماء المنتجين من علماء الأندلس». شرح عمل ابن البناء في الحساب، وأضاف إليه عدة إضافات ذات بال، خاصّة في نظرية الكسور، وفي إيجاد الأعداد الناقصة والزائدة والمتحابّة، وفي تطبيق الكسور على مسائل الفرائض، وله شرحان للتلخيص، وتبصرة المبتدي بالقلم الهندي، وكشف الأستار عن علم حروف الغبار، وكشف الجلباب عن علم الحساب .

وفي القرن ذاته جلب أبو زكرياء الحفصي إلى تونس علماء من الأندلس منهم ابن الأبّار (ت. 658هـ/ 1259م) وابن عصفور (ت. 669هـ/ 1270م) وحازم القرطاجني (ت. 684هـ/ 1285م) وابن الغمّاز (ت. 693هـ/ 1293م) . وبنى أبو زكرياء الجامع بالقصبة سنة (629هـ/ 1239م)، وجمع من الكتب ستة وثلاثين ألف مجلّد(5)، كما بنى المدرسة التي بطرف سوق الشمّاعين.

وأمرت (السيدة) عطفُ، أمّ المستنصر بالله، ببناء جامع التوفيق والمدرسة التوفيقية، المعروفة أيضاً باسم مدرسة جامع الهواء بين (647-655هـ/ 1260-1252م) قبالة الشيخ عبد الله الزليجي(6)؛ وهي التي عادت اليوم- والعود أحمد- إلى حظيرة جامعة الزيتونة.

---

(5) المؤنس ص 136 .

(6) المؤنس ص 120. .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واستمرّ الأمر كذلك في القرنين الثامن والتاسع، فأمر الأمير أبو فارس عبد العزيز الحفصي بعمل بيت الكتب، المشتملة على أمّهات الدّواوين، وجعل لها مقصورة بمجنّبة الهلال، جوفي جامع الزيتونة. وهبط إليها جميع ماعنده من الكتب (سنة 822هـ/ 1419م)[5].

إلاّ أنّه لابدّ لكلّ زمن من جولة، ولكلّ أمّة من دولة، فما فتئت الاضطرابات السياسيّة متوالية، فخُشي على مظاهر الحضارة والثقافة أن تتلاشى، وشرع كلٌّ في ميدانه يدوّن ما وصلت إليه المعرفة في عهده؛ فحرّر ابن خلدون تاريخه الموسوعي، ومهّد له بمقدّمة فذّة توضّح منهاج العلوم الإنسانية وتضع أسس العلوم الاجتماعيّة؛ ووضع ابن منظور القفصي (630- 711هـ/ 1282- 1311م) موسوعته اللّغوية الشاملة، «لسان العرب»، إلى غير ذلك من المصنّفات الثمينة.

ويعطينا ابن خلدون صورة قاتمة عن وضع العلم والتعليم بإفريقية وبالمغرب قاطبة في عهده (نهاية القرن الثامن للهجرة)... فيقول: «لمّا خُرّبت القيروان وقرطبة انقطع التّعليم من المغرب، إلاّ قليلا كان في دولة الموحّدين بمرّاكش مستفاداً منها...».

ويذكر ابن خلدون رحلة أبي القاسم ابن زيتون من إفريقية إلى المشرق «وأخذه عن تلاميذ الإمام ابن الخطيب، وحذقه في العقليات والنّقليات وعودته إلى تونس بعلم كثير وتعليم حسن».

كما يذكر أبا عبد الله بن شعيب الدكّالي، الذي ارتحل من المغرب إلى مصر، وأخذ عن مشيختها، ورجع إلى تونس واستقرّ بها .

وأخذ عن هذين العالمين أهلُ تونس، واتّصل سند تعليمهما في

(5) المؤنس ص 136.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تلاميذهما جيلاً بعد جيل، حتّى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السّلام.

ثم انتقل العلم من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلميذه، إلاّ أنّهم من القلّة بحيث يخشى انقطاع سندهم.

ويعلّل ابن خلدون عسرَ الحصول، في سائر أقطار المغرب، على الملكة والحذق في العلوم «بأنّ أيسر طرق هذه الملكة فتق اللّسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلميّة..» والحال أنّك «تجد طلاب العلم من المغرب، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلميّة، سكوتا لاينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة».

ويقول صاحب «نيل الابتهاج» في هذا المعنى: «لقد أدّى ذلك لذهاب العلم بهذه المدن المغربية التي هي من بلاد العلم من قديم الزمان كفاس وغيرها... حتّى يتعاطى الإقراء على كراسيّها من لايعرف «الرسالة» أصلا، فضلاً عن غيرها، بل من لم يفتح كتاباً قطّ، فصار ذلك ضحكة (وإنّ من المضحكات مايُبكي!). وسبب ذلك أنّها صارت بالتوارث والرّئاسات حتّى خلت هذه السّاعة عمّن يُعتمد عليه في عمله».

وكان الأمر شبيهاً بذلك بجامع الزيتونة بتونس، فكان كلّ شيخ يختصّ بسارية من الجامع يستند إليها ويحيط بها جمع طلبته ومستمعيه وإذا مات شيخ خلفه على السّارية ابن له...

ويضاف إلى ماسبق من عوائق العلم والتّعليم مايشير إليه المقّري حيث يقول: «وقد استباح النّاس النّقل من المختصرات الغريبة أربابها، ونسبوا ظواهر مافيها لأمهاتها... ثمّ تركوا الرّواية، فكثر التصحيف وانقطعت سلسلة الاتّصال، فصارت الفتاوى تنقل عن كتب لايدرى مازيد فيها ممّا نقص منها، لعدم تصحيحها وقلّة الكشف».

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأمّا عن مادّة الدّراسة فيروي أبو عبد الله محمد الأنصاري المشهور **بالرّصّاع** (ت . 894هـ/ 1488م) أنّ الامام محمد بن عرفة (716–803هـ/ 1316– 1400م) قال فيما نقل عن بعض شيوخه: «قرأت أصول الفقه على الشيخ ابن علوان، وأصول الدّين على الشيخ محمد بن سلامة وعلى الشيخ ابن عبد السّلام، والنّحو على ابن قبيس، والجدل والمنطق على الشيخ السّطّي، والحساب على الشيخ الآبلي وكذلك سائر المعقول».

وفيما يخصّ دراسته للحساب نجد أثراً في مختصره الفقهي عند حلّه لمسائل الوراثة، وتصحيح السّهمين، ومسائل العول والوصايا إلخ..

وفي «مناهل الصّفا، في أخبار الملوك الشرفا» للوزير أبي فارس القَشتالي، نجد مايصف به أمير المؤمنين أبو العبّاس أحمد المنصور الذّهبي (حوالي سنة 839هـ/ 1532م) دراسته العلميّة فيقول: «أخذت في القراءة على الفقيه الأصولي النّحوي **العددي** الفرضي أبي الرّبيع سلمان بن إبراهيم، وقرأت الرّسالة بالسّوس على أبي عمران موسى السّوسي.. وقرأت على الفقيه النحوي أبي محمد عبد العزيز بن إبراهيم مقدّمة ابن آجرّوم، وألفية ابن مالك، ولاميّة الأفعال له. وقرأت عليه علم الحساب، وقرأت على الفقيه العالم الأوحد أبي العبّاس أحمد بن علي المنجور أصول الدين إلخ إلخ...» إلى أن يقول: «**وفتح الله عليّ في فهم كتاب أقليدس في الهندسة بغير أستاذ، لعزّة وجوده بهذه البقاع المغربية، فكنت أفكّ كلّ يوم شكلاً من أشكاله**».

وفي القرن الثامن يذكر القلصادي ماالتجأ إليه من الرحلة إلى تلمسان، والتتلمذ لأبي العباس بن زاغو المغراوي، فقرأ عليه: «علم الفرائض من الواحد الصحيح، والحساب والهندسة».

تمادى المغرب في تخلّفه العلمي، نتيجة لعقم طرق التّدريس فيه، وبقي الحال هكذا حتّى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، بل وحتّى العشريات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأولى من القرن العشرين. فكان المعتمد لدى الطّلبة (وما يفرضه عليهم أوّلا الشيوخ الأساتذة) الشروح والأصول الكبار، فاقتصروا على حفظ ماقلّ لفظه ونزر حظّه: «وأفنوا عمرهم في حلّ لغوزه وفهم رموزه، ولم يصلوا لردّ مافيه إلى أصوله بالتّصحيح، فضلاً عن معرفة الضعيف والصحيح، بل حلّ مُقفل، وفهم أمر مجمل، ومطالعة تقييدات زعموا أنّها تستنهض النّفوس، فبينما يُستكثر العدول عن كتب الأئمة إلى كتب الشيوخ، أتيحت تقييدات الجهلة بل مسوّدات المسوخ» (المقّري ق 8).

وفي مادّة الرياضيات بالخصوص تفاقم عقم الطريقة التّدريسيّة، وعزّ المضطلع بدرسها، وولّت الطلبة عنها وجهها؛ ولنا نمط من درس الحساب، مثلاً في هذه العصور، فيما نجد مسجّلاً في عدّة الشروح التي اهتمّت بمتن «الدّرة البيضاء في أحسن الفنون والأشياء». وهي أرجوزة في الحساب، والفرائض والوصايا، نظمها الشيخ عبد الرحمان بن أبي عبد الله محمّد صُغيّر الأخضري، وهو من أعلام الجزائر، والمتوفى سنة (953هـ/ 1546م).

وكانت الدّرة البيضاء هي المعتمدة في التّدريس إلى عهد غير بعيد، أقرّها قانون جامع الزيتونة ضمن الكتب المنتخبة للتّدريس بالمرتبة الوسطى. على أنّه كان بجوارها مصنّفات أخرى، كمرشدة ابن الهائم، وكتب القلصادي، وأشكال التأسيس للسّمرقندي، ومختصر الجغميني في الفلك. إلاّ أنّ أسماءها بقيت حبراً على ورق واسما بدون مسمّى... وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الكتب المقرّرة للمرتبة العليا، كالمنية والتذكرة ومقالات أقليدس.

والشروح التي بين أيدينا ينقل بعضها عن بعض في غالب المواضع. ولعلّ أكبر عيب فيها جميعاً أنّها تهتمّ بصفة عامّة باعتبارات لغويّة، ومسائل نحويّة وأسلوبيّة، كاستعمال الجمل الفعلية أو الاسميّة، وتحاليل ابستمولوجية، كثيراً ماتخرج بالقارئ بعيداً عن حقل الرّياضيات. ولا يوجد فيها البتّة مايعين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

الطّالب على إدراك موضوع درسه بالذّات المرتبط بالأعداد وخواصّها.

ومن ذلك، مثلاً، عديد الحدود التي حاولوا أن يحدّوا بها العدد كقولهم: «هو كثرة مؤتلفة من آحاد»، فيردّ الشارح بأنّ الكثرة عين العدد، وأنّ الجمع في لفظ الآحاد من باب العدد؛ إلى غير ذلك من الحدود.

لقد شعر أعلام الإصلاح في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد، بما يوجد من خلل ونقص فادح في حقل التدريس عامّة، ولاسيما من الفراغ الشّامل في ميدان الرياضيات والعلوم الدقيقة.

فأصدر محمّد الصّادق باي سنة (1291هـ/ 1874م) أمراً بانشاء المدرسة الصّادقية: «رعاية لمصلحة السّكان ونموّ العمران».

ويخصّص القسم الثالث من مقدمة قانون هذه المدرسة «لتعليم اللغات غير العربية، وتدريس العلوم العقلية، من كلّ ماتحتاج إليه الأمّة الاسلاميّة في إقامة مصالحها، ولا يرفضه شرعها»، ويستعرض الفصل الخامس والعشرون هذه العلوم بالتفصيل.

وأصدر في 28 ذي القعدة 1292و 26 ديسمبر 1875أمراً في تحرير الدروس بالجامع الأعظم، جامع الزيتونة .

وتمّ فعلاً تنفيذ قانون المدرسة الصادقية، فاعتنى طلاّبها بحذق علوم العصر، وإجادة فنونها نظراً وتطبيقاً، مع المحافظة على العلوم التقليديّة اللسانيّة والدينيّة. واضطلع بتقليدها أساتذة ومدرسون من خيرة شيوخ الزيتونة.

وفيما يخصّ إصلاح جامع الزيتونة فلئن كان قانون 1875 (أعني قبيل انتصاب الحماية) تقدمياً، ولئن أصدرت لجنة الاصلاح قانونها الذي تتضح فيه نزعة التجديد، وتلقيح الثقافة العربيّة الإسلاميّة بالعلوم العصريّة والبحث العلمي الحديث، إنّ المعارضة والمقاومة عند التطبيق كانتا قويتين... خفيةً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجهراً،... فتراجعت لجنة الإصلاح وقرّرت سنة (1924– 1925) ألاّ يكون تدريس العلوم العصريّة إجبارياً إلاّ بالمرحلة الابتدائيّة، وعلّقت التّنفيذ لقرارها بالحصول على محلّ خارج الجامع «نظراً لتعذّر تعليم هذه العلوم به محافظة على صبغته الدينيّة».

ويعود أمر التنظيم لسنة (1352هـ/ 1933م) إلى هذا القيد، فقد نصّ الفصل (28) منه على مايلي: «يدرّس من العلوم خارج الجوامع: عمل الفرائض، الخط، الرسم، الصرف، التاريخ، الجغرافية، الحساب والجبر، الهندسة والمساحة، الهيئة، الميقات، مبادئ خصائص الأشياء، حفظ الصحة، الأدب، الإنشاء، الخطابة والمنتخبات، التوثيق».

وفي سنة (1348هـ/ 1929م) خصّصت مكتبة ابن عصفور، والتي تقع في الجانب الغربي الشمالي من الرّواق الغربي للجامع، جوار الصومعة، لإقراء العلوم الرياضية وغيرها، كالحساب والهندسة.

ثمّ صار التعليم بالمدرسة الخلدونية موقتاً عام (1351هـ – 1932م) للعلوم الآتية: الحساب والهندسة والجغرافية والتاريخ والإنشاء والرّسم والفرائض والعروض.

وكان طلبة الزيتونة يتألّمون من مرارة وضعهم، ويحسّون بضعف مستواهم، لاسيّما إذا ماأجروا المقارنة مع نتائج الصّادقية؛ وكنّا نشاهد بين الفينة والأخرى انتفاضة طلابية واضطرابات ترمي إلى كسر القيود وخرق السياج الذي أحاطهم به جماعة الشيوخ، الرافضين للتطوّر، الحاكمين عليهم بالجمود والبقاء في أجواء العصور الوسطى، والواقفين سدّاً ضدّ دخول غيرهم إلى ساحة التدريس بالزيتونة.

كان إذن إطار التّدريس بالزيتونة خلواً ممّن هو أهل لتدريس الرياضيات والعلوم الدقيقة، فلم يشجّع الطلبة على تناولها.. فلا غرابة أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

يكون الوضع التعليمي متدهوراً إلى الحدّ المفزع الذي شاهدناه عليه في الدّراسة الزيتونية في بداية القرن العشرين.

وأمّا الشروع الفعلي في تحقيق الإصلاح للتعليم فكان سنة 1936، في مشيخة المنعّم الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور؛ ولكن تراجع الأمر بعد استقالته، وعادت سلسلة اضطرابات الطلبة..

وفي الأربعينات عاد الشيخ ابن عاشور إلى المشيخة، وكان ابنه المرحوم محمد الفاضل رئيسا للجمعيّة الخلدونيّة، فأقحم شيخ الجامع فعلاً تدريس الحساب والجبر والفيزياء والكيمياء ضمن منهاج الزيتونة، واختار المدرسة الخلدونيّة محلاً له، وانتدب مباشرة، دون مراجعة لسلطة الاشراف، أساتذة ومدرسين ينتمون للتعليم العام وهم: (محمّد سوسي، والمرحوم البشير قوشة، ثمّ عمر الذئب) وبدأ التدريس سنة 1946، بعد وضع السلطة أمام الأمر المقضي، وفي نهاية العام الدراسي أرسل الشيخ ابن عاشور رسالة إلى إدارة المدرسة بجامع الزيتونة... جاء فيها: «قرّرنا إدخال تدريس الحساب والجبر والفيزياء والكيمياء ضمن برامج الجامع الأعظم وفروعه، وانتدبنا له الأساتذة فلاناً وفلاناً، فالرّجاء تخصيص الاعتماد المالي اللاّزم لذلك».

وتقرّر في عهد الشيخ ابن عاشور، رغم معارضة عدد من المشايخ، أن يكون نجاح الطلبة في شهادة الأهليّة وشهادة التحصيل يأخذ بالاعتبار مايحصلون عليه من درجات في الموادّ العصريّة، وأن يرسب من كان نصيبه فيها صفراً.

وفي سنة (1947) أصدرتُ كتاب «أصول الجبر»، وهو كتاب شامل لمقررات السّنوات الثلاث للمرحلة المتوسّطة من تعليم جامع الزيتونة (التي كانت تتوّج بشهادة التّحصيل). والتزمتُ فيه من حيث الأسلوب والمضمون بالموازاة التّامّة لطريقة التدريس في التعليم العام.

وأردفتُ «أصول الجبر» بسلسلة كتب «خلاصة الحساب» أتممت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

إصدارها سنة 1950، وهي شاملة لمادّة الحساب والمكاييل والمقاييس لسنوات المرحلة الأخيرة من تعليم الزيتونة. وتوجّهت في مقدّمة الجزء الأخير من هذه السلسلة إلى الطالب الزيتوني، منوّهاً بكفاحه الطويل في سبيل إصلاح التعليم، حاثّاً إيّاه على الصدق في العزيمة والعمل وعلى عدم التخاذل، مشيراً إلى انّ الهدف من هذا التأليف «هو تسديد مانقص قديماً في برامج الجامع من النّاحية الرّياضيّة، حتى يصل الطّالب، مع تضلّعه بالعلوم الدينيّة واللّغويّة، إلى مستوى طلبة المعاهد التعليميّة الأخرى بالبلاد... فيكون الطالب الزيتوني يضاهي زميله المدرسي في الشعبة العلميّة... فإذا الشباب موحّد الثقافة في أصولها. ووحدة الثقافة تورث وحدة الإحساس والتّفكير، وفي ذلك صالح الأمّة».

وأصدر الزميل المرحوم الأستاذ البشير قوشة كتابين، أحدهما في «دروس الفيزياء» والآخر في «دروس الكيمياء».

وكانت دروس الرّياضيات بجامع الزيتونة، والكتب التي نشرت فيها في ذلك العهد، وهي الأولى من نوعها في المغرب العربي، البذرة الأولى في حقل تعريب التّعليم في العلوم العصريّة... وفي الأثناء نشأت لجنة صوت الطالب الزيتوني سنة 1949، ونادت سنة 1950بزيادة التّحديث للتدّريس بالجامع الأعظم. وتكوّنت لجنة التّعليم العصري سنة 1951، وكنت من بين أعضائها، وأحدثت الشّعبة العصريّة الزيتونية في السّنة الدّراسيّة 1951– 1952، وتوّجت بالتّحصيل العصري .

وأقدم بعض الحاصلين عليه على اجتياز امتحان الباكالوريا في شعبة الرياضيات، ورغم ضعف مادّة الفرنسيّة لديهم، ولاسيّما في المقال الفلسفي، فقد سجّل نجاح عدد منهم... وكم كنت سعيداً فيما بعد حين وجدت البعض منهم يحضر دروسي في مستوى التبريز في اللغة والآداب العربيّة، أو يناقش أطروحة للحصول على دكتوراه الدّولة.

وبالموازاة لما كان يجري بالزيتونة، وإتماماً لما كنّا نرمي إليه من تحديث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

التّعليم، قرّرت هيئة الجمعية الخلدونيّة، سنة (1946- 1947)، برئاسة المنعّم المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور- وكنت من ضمنها- التّوسع في منهاج الدّروس التي كانت تلقى بها وتختم «بشهادة انتهاء التّعلم بالخلدونيّة»، ومستواها الأصلي مستوى التّعليم العام الابتدائي. فأحدثت الخلدونيّة لأوّل مرّة، في خاتمة دروسها، شهادة سمّتها «الباكالوريا العربيّة»...

وفعلاً أجريت دورة الامتحان فيها ابتداءً من 21جوان 1947، ونشرت المواضيع العلميّة لهذه الدّورة بالعدد 39 من مجلّة المباحث (بتاريخ جوان 1947)... وإثر التّصريح بالنتائج قرّرنا إرسال نخبة من الناجحين إلى المشرق (القاهرة ودمشق وبغداد) للالتحاق بكليّات العلوم به.

وبعد بضع سنوات عاد إلى تونس هؤلاء الطلبة، من خرّيجي الزيتونة والخلدونيّة معاً، حاملين الإجازة في العلوم، فانتدبتهم مشيخة الجامع الأعظم لتدريس هذه الموادّ... وصادف ذلك وشك انتهاء البناء للحيّ الزيتوني ابن شرف [أي ماصار فيما بعد كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة] فأذكر أنّنا باشرنا أوّل دروسنا فيه، فصل الشتاء، في أقسام لم يوضع لنوافذها زجاج... فكان القرّ وكانت الأمطار تتهاطل في الأقسام والمعابر... ولكنّ المعنويات كانت في أعلى عليّين...

وإذا ماعدنا إلى شهادة الخلدونيّة فلا بدّ من الملاحظة أنّ الإدارة العامّة للتّعليم احتجّت في الإبّان على تسميتها باسم «الباكالوريا العربيّة» بدعوى أنّ هذا المسمّى مفرد علم تعرّف به شهادة فرنسيّة... وعلى كلّ، إنّ الخلدونيّة تراجعت وعنونت شهادتها «بشهادة انتهاء التعلّم بالخلدونيّة» بإضافة [المسمّاة سابقاً الباكالوريا العربيّة].

وبقي الأمر على ماوصفنا إلى أن اختفت الشعبة العصريّة سنة 1964- 1965، بموجب مشروع إصلاح التّعليم التونسي لسنة 1958وإحداث شعبة «أ» القارّة، حسب نصّ المشروع، التي درست فيها الاختصاصات جميعها باللغة العربيّة، وأبرزت طلبة تفوّقوا في امتحان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الباكالوريا شعبة الرياضيات يحتلّ بعضهم اليوم منصباً مرموقاً في وزارة التربية.

ودارت دورة الزمن، واختفت شعبة «أ» هي الأخرى... لكن– والحمد لله– رغم معارضة المناوئين، إنّ هذه الدّورة لن تكون في النهاية، ورائيّة، بل ستتقدّم دوماً نحو مستقبل أفضل.

ففي العهد الجديد، تعلّقت همّة المسؤولين عن التّعليم وخاصّة العالي منه، بتحسين الوضع بالزيتونة؛ فضبط الأمر المؤرخ في 8 ماي 1995 مهامّ جامعة الزيتونة، كما ضبط الأمر المؤرخ في 18 سبتمبر 1995 الإطار العامّ لنظام الدّراسة وشروط التحصيل على الشّهادات الوطنيّة للمرحلة الأولى والأستاذيّة في الدراسات الإسلاميّة.

ففتح قرار وزارة التّعليم العالي التّابع لهذا الأمر نوافذ فسيحة يشرف منها الطّالب الزيتوني على عالم الحداثة ويتشبّع من مميّزاته وخواصّه، وينفض من حوله قشور الانكماش والتقوقع على الذّات المتحجرة التي صاحبته طوال القرون، فيتنفّس هواء طلقاً من وراء الفضاء الفسيح، ويشاهد عوالم لم تكن له على بال، وينتقل من مستوى الطفولة إلى سنّ الرشد والرّشاد... ويعيش حياة الندّ والكفء مع سائر شباب العالم.

ولن نستعرض مختلف فقرات هذا القرار– وكلّها حسنات– بل نكتفي بالتلميح إلى عدد من المهمّات التي أطلقت العقول من عقالها وفتحت الأذهان، وبعثت في نفس الطلاّب الآمال ولوّحت أمام أعينهم إشراقات مستقبل سائر إلى الازدهار. وإلى مشارف الأنوار.

وفعلاً إني شرفت بالرجوع، في السّنة الماضية، إلى التدريس في المعهد الأعلى لأصول الدين والمعهد الأعلى للحضارة الإسلاميّة.

فكم إشراقة لاحظت على جبين الحاضرين المستمعين لدرسي، وكم بصيصٍ من النّور لمع في العينين... ممّا كان يدلّني على أنّ من المستمعين من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان متشوقاً إلى هذه المعاني، وأنّي أصبت المرمى وأنّ التيّار قد مرّ... وكثيراً ماكان ذلك حافزاً لي على زيادة الغوص وعلى التوسّع في المعلومات التي كنت أشعر أنّها حظيت باهتمام الحاضرين.

وكان لي درسان أحدهما يتعلّق بتاريخ العلوم في العهد العربي الإسلامي فحلّلت تصنيف العلوم عند فلاسفة اليونان، وتطوّر مدلول العلم عند مفكّري الإسلام، ثمّ تصنيفهم للعلوم، وأبرزت المقدّمات الفلسفيّة التي كانت تبرّر هذا التصنيف، واستندت في الأعمال التطبيقيّة إلى شرح عدد من النّصوص من الإنتاج العلمي العربي في مختلف الاختصاصات من رسائل الرّازي إلى كتب البيروني وابن الهيثم وابن البيطار إلخ..

وأمّا الدرس الثّاني فخصّصته لمبادئ الاقتصاد وواقعه خاصّة في جزيرة المغرب العربي، وربطت بين الإطار الديني الذي جعله الإسلام للتجارة مثلاً وإطاره الواقعي في المغرب حتى عهد ابن خلدون (القرن الثامن للهجرة).

وأمّا ماارتاحت له النفس في البرامج الجديدة لمعاهد الجامعة الزيتونية، فمنه وحدات اللغة (اللغات الغربيّة المتداولة واللاتينية أو اليونانيّة أو الفارسيّة أو العبريّة)، ممّا قد يوحي من جهة، بقواعد لسانيّة عامّة يستفاد بها في العربيّة، وممّا قد يكون، من جهة أخرى، السبيل إلى إرساء التّفاهم مع الغير تفاهماً يسود به الوئام والتّعاضد والسّلام.

وأخصّ بالذكر وحدة الديانات المقارنة، ومن شأنها أن تبرز مابين الأديان الكتابيّة من المبادئ المشتركة وما بينها من الفروق، وفي هذه الدّراسات مابه تقرّب الشّقة بين الفئات المختلفة، وما يشير بالخصوص إلى الجامع المشترك بين الأديان ويحثّ على التّفاهم والتّسامح والتّقارب.

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net